

الخط العربي من اللحظة الأنطولوجية إلى اللحظة الإستيقية

قداسة تكاد تضاهي قداسة الصوتي ومجال للفن والممارسة الجمالية

عاطف عبد الستار

باحث دكتوراه في التراث الإسلامي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تونس - الجمهورية التونسية



ملخص

حظي الخط العربي عبر التاريخ باهتمام كبير لا باعتباره أداة تسجيل الأفكار والمعلومات وحسب، بل لكونه مرتبطاً بالدول المتعاقبة في العالم الإسلامي، طالما أن الدولة كانت في حاجة ملحة إلى الخط لترتيب شؤونها ولتسيير أمورها، ومع تعاظم الدول تعاظم دور الخط وعلا شأنه وصار الخطاط مقرباً من الحاكم أو الخليفة ملازماً له، لذلك لم يقتصر على تصوير حروف الكلمات العربية وإعجامها وتشكيلها على وجه فني جذاب فحسب، بل حوت مباحثه - علاوة على ذلك - أصول الكتابة وقواعد الإملاء التي يفرض على الكاتب أن يراعيها في رسم المفردات والمركبات من الكلمات العربية. إن مقارنتنا للخط العربي في هذه الدراسة سوف تنطلق من قراءة تاريخية تتبّع بدقّة نشأة الأبجدية العربية في أشكالها الأولى المجردة وتطورها عبر العصور، ثم قراءة ثانية تشكّلية تبين كيفية استلهام الحرف العربي وتوظيفه كعنصر تشكيلي يقتحم فضاءات الحدائق وعوالمها الإبداعية، وسنعمل في هذه الدراسة على الالتزام بالمنهج التالي: في لحظة أولى سنعمل على تقصي أصول الخط العربي وتطوره عبر التاريخ. في لحظة ثانية سنحاول التعرف على ظروف إرساء قواعد الخط العربي وتفرعه إلى عدّة أنواع أو أنماط. وفي لحظة ثالثة وأخيرة سنسعى إلى بيان كيفية اقتحام الحرف العربي عالم الفنون التشكّلية ليصير عنصراً تشكّلياً مؤثراً للوحة ومفردة أساسية أكسبت العمل الفني قيمةً جماليةً ورمزيةً معاصرة.

كلمات مفتاحية:

الخط العربي، خط المسند، الخط النبطي، الحضارة العربية الإسلامية، تاريخ الخطوط

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٧ مايو ٢٠١٦
تاريخ قبول النشر: ٠٢ أغسطس ٢٠١٦

DOI 10.12816/0052951

معرّف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عاطف عبد الستار. "الخط العربي من اللحظة الأنطولوجية إلى اللحظة الإستيقية: قداسة تكاد تضاهي قداسة الصوتي ومجال للفن والممارسة الجمالية". دورية كان التاريخية. - السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨، ص ١٠ - ١٩.

ولتسيير أمورها، ومع تعاظم الدول تعاظم دور الخط وعلا شأنه وصار الخطاط مقرباً من الحاكم أو الخليفة ملازماً له، لذلك لم يقتصر على تصوير حروف الكلمات العربية وإعجامها وتشكيلها على وجه فني جذاب فحسب، بل حوت مباحثه - علاوة على ذلك - أصول الكتابة وقواعد الإملاء التي يفرض على الكاتب أن يراعيها في رسم المفردات والمركبات من الكلمات العربية. وقد اختلف المؤرخون حول نشأة الخط العربي، فمنهم من يرى أن الأبجدية العربية اشتقت من الخط المسند الذي انتقل عن طريق القوافل إلى بلاد الشام ويُعرف أيضاً باسم الخط الحميري، ومنهم من يرجح أن أصول الخط العربي تتصل مباشرة بالأبجدية النبطية، وهذا ما تؤكده النقوش التي ترجع إلى ما قبل

مقدمة

ارتبط الخط العربي في الحضارة العربية الإسلامية بمجالات الثقافة والفنون والعمارة والصنائع والتعليم والإدارة، وتطور بشكل ملحوظ في علاقته بتلك المجالات، كيف لا وقد أضحت تعبيراً حياً عن هوية الأمة الإسلامية المرتبطة بالعلم والكتاب، مما يعكسه من عمق تاريخي وما ينطوي عليه من حسّ فني وما يُغذّيه من تذوق جمالي، وقد حظي الخط العربي عبر التاريخ باهتمام كبير لا باعتباره أداة تسجيل الأفكار والمعلومات وحسب، بل لكونه مرتبطاً بالدول المتعاقبة في العالم الإسلامي، طالما أن الدولة كانت في حاجة ملحة إلى الخط لترتيب شؤونها

لابن درستويه (أبو محمد عبد الله بن جعفر، ت ٣٤٧هـ)، و"متن الشافية، مجموع مهمات المتون"، لابن الحاجب (جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر، ت ٦٨٦هـ)، و"صبح الأعشى- في صناعة الإنشاء" للقلقشندي (أحمد بن علي بن أبي اليمن، ت ٨٢٥هـ/١٤١٨م) وغيرهم الكثير...^(١)

ومن المعاصرين: غانم قدوري الحمد، علم الكتابة العربية، دار عمار للنشر- والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٤، وأحمد صبري زايد، تاريخ الخط العربي وأعلام الخطاطين، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٨، وسهيلة الجبوري، الخط العربي وتطوره في العصور العباسية، مطبعة الزهراء، ١٩٦٢، وشربل داغر، مذاهب الحسن: قراءة معجمية تاريخية للفنون العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٢، وعبد العزيز الدالي، الخطاطة الكتابية العربية، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩، وولفسون إسرائيل، تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد بمصر، ط ١، ١٩٢٧، محمد طاهر الكردي، الخط العربي تاريخه وأدابه، مكتبة الهلال، ط ١، ١٩٣٩، وحسن المسعودي، الخط العربي، دار فلاماريون، باريس، ١٩٨٠، وعبد الكبير الخطيبي ومحمد السجلماسي، ديوان الخط العربي، ترجمة محمد برادة، دار العودة، الدار البيضاء، ١٩٨٠. كامل بابا، روح الخط العربي، دار الملايين للنشر- بيروت، لبنان، ١٩٩٤. محمود الجبوري، نشأة الخط العربي وتطوره، مطبعة بيت الحكمة، بغداد، ١٩٨٤، وغيرهم.

٢- في معنى الخط والكتابة وتعدد مدلوليهما في الثقافة العربية الإسلامية

يُعتبر الخط كما هو معلوم فناً مبنياً على أسس زخرفية وقواعد هندسية سواء في الحروف الهجائية أو في الكتابة المختزلة أو في الأرقام العددية،^(٢) والخط والكتابة والرّمق والسّطر والزّبر كلّها تعني شيئاً واحداً، وقد استخدمها الإنسان منذ زمان طويل، ثمّ قام بإدخال التعديلات والتّحسينات عليها، ومن معاني خطّ فكر يُقال: فلان يخطّ في الأرض، إذا كان يفكر في أمره ويُدبره،^(٣) وفي هذا يُصنّف الجاحظ في كتاب "الحيوان" الخطوط إلى خطّ الحازي والعرفّ والزّاجر، وخطوط آخر تكون مستراحاً للأسير والمهموم والمفكر، كما يعتري المفكر من قرع السنّ، والغضبان من تصفيق اليد وتجيحظ العين.^(٤) والأخط الدقيق المحاسن، ورجل مخطط أي رجل جميل. وقد عرف الإمام جمال الدين عثمان بن عمرو المعروف بابن الحاجب (٥٧٠-٦٤٦ هـ) الخطّ قائلاً: "الخطّ تصوير اللفظ بحروف هجائه"،^(٥) واعتبر ابن خلدون أنّ الخطّ: "هو رسوم وأشكال حرفية تدلّ على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس فهو ثاني رتبة عن الدلالة اللغوية"،^(٦) وهو "ما تعرف به صور الحروف المفردة، وأوضاعها، وكيفية تركيبها خطاً"،^(٧) وقال أبو دلف "الخطّ رياض العلوم"،^(٨)

الإسلام والقرن الهجري الأوّل ومنها نقش "أمّ الجمال" الذي يعود تاريخه إلى ٢٥٠م، ونقش شاهد قبر أمرؤ القيس الذي يعود تاريخه إلى ٣٢٨ م، وقد وجد في منطقة حوران إحدى ديار الأنباط، ثمّ انتقل إلى الأنبار والحيرة ومنها عن طريق (دومة الجندل) إلى الحجاز. وعلى هذا النحو انطلقت مقاربتنا للخطّ العربي في هذه الدراسة من قراءة تاريخية تتبّع بدقّة نشأة الأجدية العربية في أشكالها الأولى المجزدة وتطورها عبر العصور، ثمّ قراءة ثانية تشكيليّة تبين كيفية استلهاهم الحرف العربي وتوظيفه كعنصر- تشكيلي يقترح فضاءات الحدائث وعواملها الإبداعية، وقسمنا هذا المقال إلى ثلاثة لحظات أساسية: في لحظة أولى سنحاول تعريف الكتابة والخطّ والوقوف على تعدّد مدلوليهما في الثقافة العربية الإسلامية، وفي لحظة ثانية سنعمل على تقصي أصول الخطّ العربي وظروف نشأته وتفزعه إلى عدّة أنواع أو أماط، ثمّ سنحاول في لحظة ثالثة وأخيرة بيان كيفية اقتحام الحرف العربي عالم الفنون التشكيليّة ليصبح عنصراً تشكيليّاً مؤثلاً للوحة المسندية أو غيرها ممّا أكسب العمل الفنّي قيمة جماليّة ورمزيّة تتخطى الرؤية البصريّة ولا تتوقّف عندها.

١- مصادر ومراجع البحث

نودّ في البداية أن نُشير إلى بعض المصادر القيّمة والتي لا غنى عنها في دراسة تاريخ الكتابة العربية (أي الإملاء) وتطورها عبر التاريخ فيها يجد الباحث ما يروي به عطشه ويُمّجّ ناظره ويُنمي معرفته حول علم لا يقلّ أهميّة عن بقيّة العلوم التي ظهرت وترعرعت في ظلّ الحضارة الإسلاميّة، علم يقدم توضيحات عن أصل العلامات الكتابية ودلالاتها، ومهدنا بتفسيرات لغوية وتاريخية لكلّ اختلاف بين المنطوق والمرسوم، وكلّ ذلك من شأنه أن يجعل الباحث يتعامل مع نظام واضح الأبعاد محدّد الدلالات فيمنحه ذلك معرفة بالبعد التاريخي للخطّ العربي ويمنعه من ارتكاب أخطاء كتابية كثيرة ثبت شيوعها وللأسف الشديد عند فئة لا بأس بها من الكتّاب اليوم. ومن هذه المصادر نذكر: كتاب "المطالع النصريّة في الأصول الخطية" للهوريني، و"كتاب الهجاء" للكسائي (علي بن حمزة، ت ١٨٩هـ)، وللجستاني (أبو حاتم سهل بن محمد البصري، ت ٢٥٥هـ)، و"كتاب أدب الكاتب" لابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ)، و"كتاب الخطّ والهجاء" لابن يزيد المبرد (أبو العباس محمد، ت ٢٨٥هـ)، و"كتاب الهجاء" لابن كيسان (أبو الحسن محمد بن أحمد، ت ٢٩٩هـ)، و"كتاب الخطّ والقلم" لابن سلمة (أبو طالب المفضل، ت حوالي ٣٠٠هـ)، و"كتاب الخطّ" لابن السراج (أبو بكر محمد بن السري، ت ٣١٦هـ)، و"كتاب الهجاء" للجعد (أبو بكر محمد بن عثمان، ت بعد ٣٢٠هـ)، وللأنباري (أبو بكر محمد بن القاسم بن بشّار، ت ٣٢٨هـ)، و"كتاب أدب الكاتب" للصولي (أبو بكر محمد بن يحيى، ت ٣٣٦هـ)، و"كتاب الخطّ" للزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، ت ٣٣٧هـ على الأرجح)، و"كتاب الهجاء"

٣- ظهور الخط العربي وتطوره عبر التاريخ

ذهب علماء اللغة والمؤرخون أشواطاً بعيدة في البحث عن نشأة الخط والأبجدية في العالم، فدرسوا أيام الأمم القديمة وآثارهم ونقوشهم وأثبتوا بعد دقة الاستقراء أن أول من اخترع الأبجدية في العالم هم الفينيقيون الكنعانيون من نسل سام بن نوح عليه السلام في عصر "حiram" ملك بيبولس سنة ١٣٠٠ ق م، ثم تبنى اليونانيون تلك الأبجدية سنة ١٠٠٠-٨٠٠ ق م،^(٢٥) وقد صارت أبجدية الكنعانيين مصدراً لكل الكتابات الأبجدية العالمية، فتأثرت بها جميع اللغات السامية من آرامية وسريانية وكلدانية وعبرانية وعربية، واللغات اللاتينية من يونانية وإيطالية وفرنسية وإسبانية وإنجليزية... وقد استخدم العرب كغيرهم من الأمم الكتابة في كل مجالات الحياة تقريباً فسجلوا أحداثهم اليومية،^(٢٦) وكتبوا العهود والمواثيق وثبتوا الأحلاف وخطوا الرسائل والصكوك، وسند ملكية الرقيق،^(٢٧) ومن بين الممدن والحواضر القديمة التي عرف أهلها الكتابة والقراءة في شبه الجزيرة العربية، المناذرة واللخميين بالحيرة والغساسنة بتخوم الشام، والقرشيون بمكة،^(٢٨) والأوس والخزرج واليهود بالمدينة^(٢٩) وثقيف بالطائف، وهذا بالإضافة إلى بعض مدن شمال الجزيرة كدومة الجندل.

ظهرت بالتالي أنواع كثيرة من الخطوط كانت شائعة في ذلك العصر - مثل الخط التدمري،^(٣٠) والخط النبطي،^(٣١) والخط السرياني،^(٣٢) المشتقة جميعها من الخط الآرامي،^(٣٣) فأما أهل الحجاز فمنهم من استعمل الخط السرياني لفترات طويلة من الزمن وخاصة اليهود منهم الذين كانوا يُحسنون قراءة هذا الخط وكتابته،^(٣٤) وهذا ما أكدته أيضاً المسعودي في "مروج الذهب"، وابن عبد ربّه في "العقد الفريد"، ومنهم من كتب بخط المسند الحميري وهو خط أهل اليمن وحافظ عليه إلى أيام النبي ﷺ^(٣٥) تماماً مثل عرب العراق الذين آثروا الخط الحميري على بقية الخطوط^(٣٦) لكثرة مبادلاتهم التجارية مع أهل اليمن مما يسهل المعاملات بينهم، كما عرف أهل الحجاز أيضاً الخط النبطي لانتصاليهم الوثيق بالأنباط ببلاد الشام.

وعلى الرغم من تعدد الروايات وتباين المقاربات فيما بينها وإن معظمها يفتقر إلى الوثائق، بما في ذلك بعض المصادر العربية القديمة التي تعود إلى القرن الرابع الهجري (١٠م)^(٣٧) والتي تكشف بوضوح اضطراب الآراء وتباين الروايات بشكل يجعلنا أكثر حذراً في التعامل معها، وكذا الشأن بالنسبة للدراسات المعاصرة التي ذهبت أشواطاً بعيدة في تحديد الظرفية التاريخية التي شهدت بداية ظهور أولى معالم الحروف الأبجدية العربية بالنظر إلى كثرة الأمم المنتمجة إلى الشعوب السامية والتي سكنت الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين، ومنهم الأكاديون والآراميون والبابليون والفينيقيون والكنعانيون والعبرانيون والعرب.. إلا أننا يمكن أن نُرجع نشأة الخط العربي إلى نوعين من الخط منذ الجاهلية وقبل مجيء الإسلام وهما خط المسند

وقال النظم "الخط أصيل في الروح وإن ظهر بحواس البدن"،^(٩) وقال أفلاطون "الخط عقل العقل"، وقال إقليدس "هندسة روحانية وإن ظهرت بألة جسمانية"،^(١٠) وهو "آلة جسمانية تضعف بالترك وتقوى بالإدمان"،^(١١) وهو "ملكة تنضبط بها حركة الأنامل بالقلم على قواعد مخصوصة".^(١٢) وأما كمال عبد جاسم الصالح الجميلي فقد عرّف الخط قائلاً "هو فن كتابة الحروف بقواعد خاصة تزيدها وضوحاً وجمالاً وجذباً"،^(١٣) ومن العلماء من عدّ الخط أشرف العلوم منزلة وأعمها نفعاً بقوله "وجميع العلوم تُعرف بالدلالة عليها أو اللفظ أو الخط، فالإشارة تتوقف على المشاهد، واللفظ يتوقف على حضور المخاطب والسّماع، أما الخط فلا يتوقف على شيء من ذلك، فهو أعمها نفعاً وأشرفها".^(١٤)

وللكتابة لغة معان عديدة، منها الفرض^(١٥) والحكم^(١٦) والقدر،^(١٧) وتأتي بمعنى الجمع، وذهب القلقشندي إلى اعتبار أن "أعظم شاهد لجليل قدرها (الكتابة)، وأقوى دليل على رفعة شأنها، أن الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه واعتده من وافر كرمه وأفضاله فقال عز اسمه ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الذي علم بالقلم [العلق: ٣-٤]".^(١٨) فالكتابة هي الأداة الناقلة للعلوم والأفكار، بها يُطلب العلم ويتطور، وبها تُحفظ أصناف العلوم ومختلف إنتاجات البشر، وهي "حرفة يحترفها طائفة من الناس وكانت تتطلب معرفة بفنون مختلفة من العلوم وسعة في الإطلاع على النحو الذي ألف فيه صباح الأعشى - للقلقشندي، ونهاية الإرب للتوبري"،^(١٩) و"الكتابة، والكتاب، والكتب، مصادر (كتب) إذا خط بالقلم، وجمّع، وخط، وخرّز. يُقال (كتب) قرطاسا، أي: خط فيه حروفاً وضّمها إلى بعضها، و(كتب) الكتاب، أي جمعها..".^(٢٠) وقالوا "بُنيت الكتابة على خمس: قوّة الأخماس، وحدة الأماس، وجودة القرطاس، ولمعان الأنفاس، وحس الأنفاس".^(٢١)

فالخط إذا يأخذ أهمية الكتابة ويفوقها لأنه بلاغتها وجمالها وجمالها، وهو الصورة الناصعة لها. وفي هذا الإطار يُفرّق بن خلدون بين الخط والكتابة وذلك لقوله "ودُرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة والعلم إلى مصر والقاهرة"،^(٢٢) كما قال في موطن آخر "ولمّا احتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته"،^(٢٣) ولم يقل استعملوا بالعود على الكتابة وإنما خصّ الخط بالاستعمال لأنه يلحقه في ما بعد بالإتقان فيسترسل "فطلبوا صناعته وتعلّموه وتداولوه فرقت فيه الإجابة"،^(٢٤) وهكذا يُفاضل ابن خلدون بين الخط والكتابة على الرغم من اجتماع كل منهما لديه وهذا ما يبدو واضحاً من عنوان الفصل الثلاثون "الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية" من الباب الخامس "في المعاش ووجوهه من الكسب والعلوم والصنائع" من المقدمة.

كالألف والذال والحاء والكاف والميم والسین والشین والراء والفاء كما حوّرت أشكال بعضها الآخر نحو التبسيط كالواو والفاء والقاف، أمّا بقية الحروف كالجيم والطاء واللام والنون والياء واللام، فقد ظلت نبطية واستمر استعمالها حتى يومنا هذا. وذكر المؤرخون أنّ الخطّ النبطي جاء إلى مكة والطائف من العراق عن طريق التجارة التي كان قريش يمارسونها مع سكّان تلك المدن، وجدير بالملاحظة أنّ الكتابة العربية الجاهلية كانت خالية من الحركات والنقط (التشكيل والتنقيط).^(٤٤)

ومن هنا نستنتج أنّ العرب القاتنين بشمال الجزيرة العربية كانوا يكتبون ما يريدون تدوينه بالأحرف الآرامية في بداية أمرهم ثمّ اشتقوا أبجديتهم النبطية من الآرامية، ومن أهمّ خصائص الخطّ النبطي نذكر أربعة منها:

- خلوه من التنقيط والتشكيل، ولم تكن للحركات علامات خاصة بها، إذ يشترك أكثر من حرف برمز كتابي واحد، فيما يُحدّد السياق الحرف المقصود.
- ثانياً تُحذف في الكتابة النبطية الألف المتوسطة التي ترمز إلى المدّ الصوتي، وكذا الياء والواو في بعض الحالات، وهو ما حافظت عليه الكتابة العربية إلى اليوم حيث يُنطق المدّ وتُحذف الألف التي تُرمز إليه لتُكتب الكلمة على النحو الآتي (لكن، هذا..).
- ثالثاً: تُرسم تاء التأنيث في آخر بعض الكلمات التي تتمّ بالهاء، بالتاء المفتوحة مثل كلمة "قريت" (قرية).
- رابعاً: زيادة واو في آخر أسماء الأعلام، واستمر ذلك في اللغة العربية مع بعض الأسماء مثل اسم "عمرو".

٤- نشأة الخطوط العربية وتفرّعها

كان للنهضة العلمية الإسلامية أساساً علم الرياضيات والهندسة تأثير كبير في ازدهار فنّ الخطّ العربي والفنون الإسلامية عموماً، حيث وقع ترجمة النظريات الهندسية والرياضية إلى علامات بصرية تجلّت أساساً من خلال الفنّ المعماري الذي أصبح بدوره شاهداً على تطوّر الهندسة العملية في ظلّ الحضارة الإسلامية. وفي هذا المناخ ظهرت أنواع مختلفة من الأقلام أو الخطوط وأخذت في التفرّع والانتشار فبدأت تتراعى لنا أولى المحاولات الجادة في إرساء قواعد الخطّ العربي الذي لم يكن في بداياته منقوطةً ولا مُشكلاً كما هو الحال اليوم، ولكنّ ضرورة التمييز بين الحروف المتشابهة عندما تمّ تحويلها من الكوفي اليابس إلى مجموعة الخطوط جعل من الخطاطين يعمدون إلى تنقيط الحروف وشكلها، ويُعدّ أبو الأسود الدؤلي أول من نقطّ الخطّ العربي في حين أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول من شكله.^(٤٥)

المشتقّ من الخطّ الكنعاني وريث الهيروغليفية، وهو القديم الواسع الانتشار في جنوب الجزيرة العربية وبعض أنحاء الشمالية، وكان قد زال من الاستخدام في الفترة القريية من ظهور الإسلام، وقد تبنى هذا الرأي كثير من الباحثين المعاصرين منهم محمّد طاهر الكردي، وحفني ناصف، ثمّ الخطّ النبطي الذي كان معروفاً في الحجاز والمناطق الواقعة في شمال الجزيرة العربية وشمالها الشرقي، وقد استعمل في ما بعد في تدوين القرآن الكريم وفي كتابة العهود والمواثيق وكلّ شؤون الدولة الإسلامية.

١/٣- خطّ المسند

فأما خطّ المسند فهو خطّ مشتقّ من الأبجديات السامية الشمالية، السينائية، أو الفينيقية، أو الكنعانية، وهو "أقدم الأقلام التي عرفت في شبه جزيرة العرب حتى الآن، ويبدو أنّه كان معروفاً في كلّ شبه جزيرة العرب قبل الإسلام، وربّما كان القلم العام للعرب قبل المسيح، أي قبل ظهور أقلام أخرى ولدت على ما يظنّ بعد الميلاد، ومن ثمّ سمّاه بعض المحدثين بالقلم العربي الأول، أو القلم العربي القديم"،^(٣٨) وقال الدكتور غانم قدوري الحمدي: "وتسمية (المسند) بخطّ حمير لا تدلّ إلا على أنّهم آخر من كتب به"^(٣٩) لا على أنّه حكرا عليهم طالما أنّ خطّ المسند ينقسم إلى خمسة خطوط فرعية أخرى وهي الخطّ الصفوي (نسبة إلى جبل الصفاة الموجودة في بادية الشام)، والثمودي، واللحياني (نسبة إلى قبائل ثمود ولحيان وهي قبائل عربية قديمة استوطنت شمالي الجزيرة العربية)، والسبئي، والمتّصل.

ويتميّز خطّ المسند بالخصائص التالية: فهو خطّ خال من أية علامة للحركات أو حروف المدّ وتتكوّن أبجديته من تسع وعشرين حرفاً تماماً كالأبجدية العربية الشمالية، مع زيادة حرف واحد ينطق بين السّين والشّين، وتُكتب حروفه منفصلة، ويفصل بين الكلمة والأخرى خطّ عمودي، ويندر وجود الفاصل في النقوش الشمالية المتحدّرة عن المسند، وأمّا الكتابة فتبدأ على غرار الكتابة العربية من اليمين نحو الشمال، يكتب الحرف المشدّد مرتين غالباً.

٢/٣- الخطّ النبطي

وأما الخطّ النبطي فأخذه العرب من أبناء عمومته من الأنباط،^(٤٠) الذين استخدموا الكتابة الآرامية التي كانت سائدة في الشام زمن قيام دولة الأنباط، وكان لهذا الاستخدام للكتابة الآرامية إيذاناً ببداية ظهور الخطّ العربي الشمالي، فعلى أيديهم تطوّرت أشكال الحروف الآرامية، ثمّ طوّر العرب أشكال بعض الحروف النبطية وابتكروا أشكالاً مغايرة في محاولة لفصل الحروف ووصلها،^(٤١) وما أن بزغ فجر القرن السادس للميلاد إلا وكان للعرب خطّ جديد أطلق عليه العلماء "الخطّ العربي" الذي تطوّر بين حوران وشمال الحجاز،^(٤٢) وهذا ما جعل العلماء يفتنّون بأنّ أصل الخطّ العربي من الخطّ النبطي.^(٤٣)

وإنّ المتأمل في عديد حروف الخطّ العربي يلاحظ أنّ لها شكل متميّز لا يتطابق مع النقوش المتبقية من الخطّ النبطي

ه- القيم الجمالية لفن الخط العربي

يُعدّ الخطّ العربي أكثر الخطوط تنوعًا ومرونة وجماليةً وقابليةً للتطور والتأقلم مع جميع الفضاءات وعلى كل الخامات تقريباً (رخام، حجارة، خزف، عاج، ذهب، فضة، قماش، ورق...)، ولئن اقتصر هذا الفنّ في اللّحظات الأولى على تلك التّنويعات التي تجمع بين الخطّ والزّخرفة، إلاّ أنّه سرعان ما اندمج طيلة العصر الوسيط مع الرّسوم المنمنمة التي تحتوي على مخلوقات حيّة وبشريّة في الكتب المختلفة، على سبيل الشّرح والتّوضيح، أو لوحات مرافقة للقصص والمقامات، فكان الخطّ مرافقاً ومكملاً لها. ولكنّ هذا الإحساس بالقيمة الفنيّة والجمالية للخطّ العربي قد ازداد لما اقتحم الحرف عالم الفنون التشكيلية ليصير عنصرًا تشكيليًا مؤثّرًا للوحة المسندية أو غيرها أكسب العمل الفنيّ قيمة جمالية، رمزيّة وتأمليّة، وأبعادًا روحية وحضارية، تتخطى الرّؤية البصريّة ولا تتوقّف عندها، فنجح الفنّان العربي والمسلم بذلك في استنباط أسلوب تشكيلي فريد من نوعه يعتمد بالأساس على توظيف الحروف العربيّة كعناصر تشكيلية مستقلة بذاتها، تتفاعل مع بقية العناصر داخل الفضاء ولكن لا تضمحل أو تفقد دورها أو تُفرغ من قيمتها الجمالية.. ومن هنا يخرج الخطّ من إطاره الوظيفي المحض ليكتسب بعدًا جماليًا ينتشله من الجمود والجفاف ليلج به عالمًا جديدًا ملؤه الأشكال والألوان، فيه تتحوّل الكتابة إلى عنصر- تشكيلي ويندمج الشّكل بالمضمون ليُعبّر بوضوح عن قدرة الفنّان المسلم على صنع الجمال وأداء المعنى في كلّ عصر- وبذلك أصبح الخطّ العربي قاسمًا مشتركًا لكلّ الفنون الإسلاميّة التي أعارها طابعه الجمالي القائم على التّناسب بين الخطّ والنقطة والزّخرفة بمختلف أشكالها، وتحوّلت كتابة الخطّ العربي إلى آثار فنيّة منحت للمكتوب قداسة تكاد تُضاهي قداسة الصّوتي.

خاتمة

وهكذا نصل في آخر هذا البحث إلى القول بأنّ الخطّ قد خرج مع المسلمين من إطاره الوظيفي المحض ليكتسب بعدًا جماليًا ينتشله من الجمود والجفاف ليلج به عالمًا جديدًا ملؤه الأشكال والألوان، فيه تتحوّل الكتابة إلى عنصر تشكيلي ويندمج الشّكل بالمضمون ليُعبّر بوضوح عن قدرة الفنّان المسلم على صنع الجمال وأداء المعنى في كلّ عصر- وبذلك أصبح الخطّ العربي قاسمًا مشتركًا لكلّ الفنون الإسلاميّة التي أعارها طابعه الجمالي القائم على التّناسب بين الخطّ والنقطة والزّخرفة بمختلف أشكالها، وتحوّلت كتابة الخطّ العربي إلى آثار فنيّة منحت "للمكتوب قداسة تكاد تُضاهي قداسة الصّوتي، إذ القرآن نزل خطابًا مسموعًا وظلّ إلى حدود فترة الخلفاء الراشدين يُتلى فحسب أو يُلقى شفويًا، لكنّ لما ظهرت الحاجة إلى تدوينه أخذت الكتابة تكتسب أهمية كبرى ذات طبيعة مزدوجة فهي من ناحية سجلّ النصّ القرآني ومحمّله، وهي من جهة أخرى مجال للفنّ والممارسة الجمالية"^(٤٧).

وينقسم الخطّ العربي إلى قسمين: الخطّ اليابس والخطّ اللين، فأما فاليايس فهو الخطّ الكوفي الذي اقتبسه الكوفيون من الخطوط القديمة المستخدمة في العصر- الجاهلي وحتى العصر- الأموي. وأما اللين فهو أنواع: وأبرزها النسخ والتلث والفارسي والديواني والرّقعة والخطّ المغربي. وقد تفنّن الخطّاطون في اشتقاقها في الأقطار التي فتحها المسلمون، فالنسخ والتلث ظهرا في العراق وظهر الخطّ الفارسي في إيران والهند، والرّقعة والديواني في تركيا والخطّ المغربي في شمال أفريقيا والأندلس. وفيما يلي نماذج من هذه الخطوط عبر العصور:

- ١- الخطّ الكوفي: نسبة إلى الكوفة، وذكر القلقشندي نقلًا عن الشاطبي أنّه يرجع إلى أصلين وهما التّقوير والبسط، أي اللين والمزوي، وجاء في "علم الكتابة" للتّوحيدي أنّ قواعد الخطّ الكوفي في زمنه اثنتا عشرة قاعدة: "الإسماعيلي والمكي، والمدني والأندلسي، والشامي والعراقي، والعباسي والبغدادي، والمشعب والريحاني، والمجرّد والمصري"^(٤٦). وكلّ هذه التسميات إقليمية ليس بينها فروق وخصائص.
- ٢- الخطّ الفارسي: ظهر ببلاذ فارس بعد الفتح الإسلامي:
- ٣- خطّ الرّقعة: نشأ هذا الخطّ في عهد السّلطان محمد الفاتح، وهو يجمع بين حروف خطّ النسخ والديواني الدقيق القديم، ورّما كانت تسميته بالرّقعة نسبة إلى قلم الرّقعة الذي كان يكتب به هذا النوع من الخطوط.
- ٤- خطّ النسخ: وسُمّي بالنسخ لأنّ الكتاب كانوا ينسخون به المؤلّفات، وقد نشأ بالشّام:
- ٥- الخطّ الديواني: وهو الخطّ الذي يختصّ بالكتابات الرسميّة في ديوان الدّولة العثمانيّة.
- ٦- خطّ التلث: من الخطوط الصّعبة إذ لا يعتبر الخطّاط خطّاطًا إلاّ إذا أتقنه، ويعبّر عنه بأمر الخطوط، وسُمّي بذلك لأنّ قلم الطّومار وهو أجلّ الأقلام مساحة، عرضه أربع وعشرون شعره، وقلم التلث منه بمقدار ثلثه وهو ثماني شعرات، ويستعمل لكتابة أسماء الكتب المؤلّفة، وأوائل سور القرآن الكريم، والحرف فيه يميل إلى التّقوير والإستدارة:
- ٧- الخطّ المغربي: هو سليل الخطّ الكوفي الديني اليابس المنقّط الذي ظهر في مبدأ أمره في القيروان في أواخر العصر الأموي ثمّ انتشر في أرجاء شمال أفريقيا والأندلس وغرب أفريقيا.
- ٨- الخطّ الحديث: هو مجموع الخطوط التي اشتقّها الخطّاطون والمهتمون بالفنون التشكيلية واستعملوها في تكوين لوحاتهم الفنيّة وفي عناوين الكتب والصّحف والمجلّات والإعلانات:



صورة (٢)

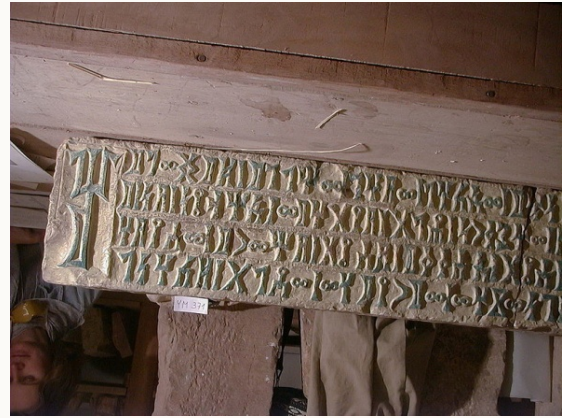
صفحة من مصحف بالكوفي المشريقي

بخط عثمان بن الحسين الوراق الغزنوي، إيران ٤٨٤هـ/١٠٩٢م،
مكتبة طوب قايي بإسطنبول

ض	نبطي
N/A	Ⲁ ⲁ Ⲃ
ط	ⲃ Ⲅ ⲅ
N/A	Ⲇ ⲇ Ⲉ
ظ	ⲉ Ⲋ ⲋ
N/A	Ⲍ ⲍ Ⲏ
ع	ⲏ Ⲑ ⲑ
غ	Ⲓ ⲓ Ⲕ
ف	ⲕ Ⲍ ⲍ
N/A	Ⲏ ⲏ Ⲑ
ق	ⲑ Ⲓ ⲓ
ك	Ⲕ ⲕ Ⲍ
ل	ⲍ Ⲏ ⲏ
م	Ⲑ ⲑ Ⲓ
ن	ⲓ Ⲕ ⲕ
ه	Ⲍ ⲍ Ⲏ
و	ⲏ Ⲑ ⲑ
ي	Ⲓ ⲓ Ⲕ

شكل (٥) تطابق بعض حروف الخط العربي مع حروف الخط النبطي

الملاحق (الصور)



صورة رقم (٣)

نماذج من الخط الفارسي



صورة رقم (١)

نقوش مختلفة بخط المسند الحميري



صورة (٦)

مصنف مذهب بخت الثلث (٨٦٤هـ) للخطاط عبد الله الطباخ الهروي، محفوظ في مكتبة تشستر بيتي برقم ١٤٩٩



صورة رقم (٤)

مصنف مزخرف ومذهب بخت النسخ (٩٨٢هـ) للخطاط الفارسي محمد بن مطهر (تقي الدين)، محفوظ في مكتبة تشستر بيتي برقم ١٥٣٤



صورة (٥)

فرمان عثماني بالخط الديواني ومزين بطغراء السلطان سليم الثاني



صورة (٧)

صفحة قرآنية بالخط المغربي من الأندلس ١٤/هـ ١٤٩٩م

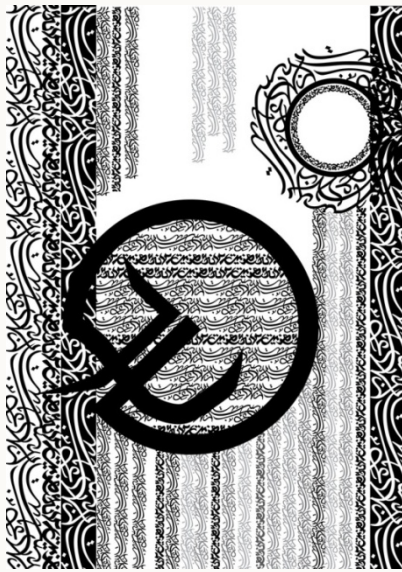


صورة رقم (١١) نموذج من أعمال حسن شاكر آل سعيد



صورة (٨)

مصحف مذهب بالخط المغربي المضبوط للخطاط المصري محمد بن أحمد جموع (١٠٤٤هـ)، محفوظ في المكتبة المركزية للمخطوطات الإسلامية في القاهرة



صورة رقم (٩) مثال من الخط الحديث



صورة (١٢)

بعض أعمال نجا المهداوي



صورة رقم (١٠)

لوحة خطية للفنان العراقي ضياء عزاوي

- (٢٩) عبد العزيز الدالي، الخطاطة الكتابية العربية، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩، ص ٤٢.
- (٣٠) تعود أقدم الكتابات التدمرية إلى القرن الأول قبل الميلاد ويمتد تاريخها إلى القرن الثالث الميلادي، لمزيد من التفصيل يُمكن العودة إلى ولفنسون إسرائيل، تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد بمصر، ط١، ١٩٢٧، ص ١٢٨.
- (٣١) اشتق الأنباط الخط النبطي من الخط الآرامي، وعلى الرغم من تطوره التسبي منذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، إلا أنه لم يأخذ طابعه المميز إلا في القرن الأول قبل الميلاد.
- Diringer (D), op. cit, pp 136-140.
- (٣٢) علي جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٦٩، ص ١٥.
- (٣٣) الخط الآرامي وهو أحد الفروع الرئيسية للخط السامي الشمالي، وقد انحدر عنه في أواخر القرن العاشر أو أوائل القرن التاسع قبل الميلاد. يُمكن العودة إلى:
- Diringer (D), *The Alphabet*, London, 1968, VOL I, p 198
- (٣٤) بن هشام (أبو محمد عبد الملك)، سيرة النبي ﷺ، مراجعة وضبط وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ج١، ص ٢٠٧. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٤٩، ج١، ص ٢٠٧ / ابن عبد ربه، العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧، ج٤، ص ١٥٦.
- (٣٥) علي جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص ٥٥.
- (٣٦) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نفسه، ج٣، ص ١٤.
- (٣٧) ابن النديم، الفهرست، نفسه، ص ٦.
- (٣٨) غانم قدوري الحمد، علم الكتابة العربية، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٤.
- (٣٩) غانم قدوري الحمد، الكتابة العربية، نفسه.
- (٤٠) إبراهيم جمعة، دراسة في تطوّر الكتابات الكوفية، دار الفكر العربي، ص ١٧.
- (٤١) سهيلة الجبوري، أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، مطبعة الأديب، بغداد، ١٩٧٠، ص ٤٨.
- (42) Abbott Nabia, *The Rise of the North Arabic Script and its kuranic Development with a full Discription of the Kuran Manuscripts in the Srial Institute, Chicago, 1938, p 8-9.*
- (٤٣) علي جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، نفسه، ص ٦٧-٦٨ / نيلسن وداتليف وآخرون، التاريخ العربي القديم، ترجمة حسين علي وزكي محمد حسن، مطبعة النهضة المصرية، ١٩٥٨، ص ٣٨.
- (٤٤) لم يكن الخط العربي في بداياته منقوفاً ولا مُشكلاً كما هو الحال اليوم، ولكن ضرورة التمييز بين الحروف المتشابهة عندما تمّ تحويرها من الكوفي اليابس إلى مجموعة الخطوط جعل من الخطاطين يعمدون إلى تنقيط الحروف وشكلها، ويُعدّ أبو الأسود الدؤلي أول من نقط الخط العربي في حين أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول من شكله. فخري النجار، الخليل بن أحمد الفراهيدي، آراء وإنجازات لغوية، دار صفا للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٨ / أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم، معجم القراءات القرآنية، مطبعة جامعة الكويت، ١٩٨٨، ص ٥١.
- (٤٥) أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم، معجم القراءات القرآنية، مطبعة جامعة الكويت، ١٩٨٨، ص ٥١.
- (٤٦) ناجي زين الدين المصرف، بدائع الخط العربي، مؤسسة رمزي للطباعة والفنون، بغداد، ١٩٨٢، ص ٣٣.
- (٤٧) فريد الزاهي، الجسد والصورة والمقدّس في الإسلام، نفسه، ص ١٣٣.

- (١) الهوريني (أبو الوفا نصر الوفاي، ت ١٢٩١هـ/١٨٧٤م)، المطالع النصرية للمطالع المصرية في الأصول الخطية، تحقيق عبد الوهاب محمود الكحلة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠١ / بن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ)، كتاب أدب الكاتب، تحقيق محمد الدالي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٢.
- (2) Abdul Kabir Khatibi and Mohammad Sejelmasi, the Splendour of Islamic Calligraphy, Thomas and Hudson: London, 1976, 20.
- (٣) ابن منظور، لسان العرب، نفسه، مادة خط، ج٢، ص ١١٩٨.
- (٤) الجاحظ، الحيوان، نفسه، ج١، ص ٦٣.
- (٥) ابن الحاجب (جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر)، متن الشافية، مجموع مهمات المتون، ط١، ١٩٤٩، ص ٥٥١.
- (٦) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ١٠٥.
- (٧) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميركية، مصر، د.ت، ج٣، ص ٨.
- (٨) ابن النديم، الفهرست، ص ١٦.
- (٩) نفسه، نفس الصفحة.
- (١٠) نفسه، ص ١٣.
- (١١) محمد طاهر الكردي، الخط العربي تاريخه وآدابه، مكتبة الهلال، ط١، ١٩٣٩، ص ٧-٨.
- (١٢) نفسه، ص ٨.
- (١٣) كمال عبد جاسم الصالح الجميلي، أثر القرآن الكريم في الخط العربي، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، بغداد، العدد التاسع، ص ٣٠٣.
- (١٤) الشيخ شمس الدين الأصفهاني وهو طبيب باحث بالحكمة والرياضيات توفي بالقاهرة في ٧٤٩هـ. أنظر القلقشندي، صبح الأعشى، نفسه، ج٣، ص ٧.
- (١٥) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ١٩٩٩، ج٥، مادة "كَنَب"، ص ٣٨٦١.
- (١٦) الزاغب الأصفهاني (أبي القاسم الحسين بن محمد)، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق والدار الشامية بيروت، ط١، ١٩٩١، ص ٦٩٩.
- (١٧) ن.ن. ص.
- (١٨) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نفسه، ج١، ص ٣٥.
- (١٩) ابن النديم، الفهرست، نفسه، مقدّمة المحقق.
- (٢٠) الهوريني (أبو الوفا نصر الوفاي، ت ١٢٩١هـ/١٨٧٤م)، المطالع النصرية للمطالع المصرية في الأصول الخطية، ص ١٣.
- (٢١) شربل داغر، مذاهب الحسن: قراءة معجمية تاريخية للفنون العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ص ٣٣٧.
- (٢٢) ابن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، ١٨٩١، ط٤، ص ٤٢٠.
- (٢٣) نفسه، نفس الصفحة.
- (٢٤) انظر أيضاً محمد الهادي دحمان، الخط العربي في السياق الخلدوني، مقال في مؤلف جماعي بعنوان "الخط العربي بين العبارة التشكيلية والمنظومات التواصلية"، نفسه، ص ٢٥.
- (٢٥) فريد نان توتل، المنجد في الأدب والأعلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٦، ص ٤٠٠.
- (٢٦) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، ص ٦٧.
- (٢٧) نفسه، ص ٦٦-٦٧-٦٩-٧٣.
- (٢٨) صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٢، ص ٢٣.